



معجزة العصا واليد البيضاء

المقالات

الدرس السابع - شرح الآيات 30 - 35

2019-03-22

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على سيدنا محمد، وعلى آله وأصحابه أجمعين، اللهم علّمنا ما ينفعنا، وانفعنا بما علّمتنا وزدنا علماً يا ربّ العالمين.

التكرار أسلوب قرآني لتحديد هدف السور و مقصدها :



قصة موسى الأكثر وروداً في القرآن

مع اللقاء السابع من لقاءات سورة القصص، نحن مازلنا في قصة موسى عليه السلام كما جاءت في سورة القصص، وقلنا سابقاً: إن قصة موسى عليه السلام هي أكثر قصة تكرر ورودها في القرآن الكريم، أحصيتهم مرة أظن ثلاثين موضعاً بين إشارة سريعة وليس بالاسم، بالاسم أكثر، لكن بين إشارة سريعة أو تفصيل طويل، ثلاثون موضعاً تقريباً قصة موسى تكررت في كتاب الله عز وجل إذاً هناك حكمة كبيرة، أي أنت عندما تكرر شيئاً فإنما لتقرر، وما تكرر تقرر، واليوم مما يصنع الإعلام أنه يتبع هذه القاعدة، الإعلام الغربي والعربي يتبع هذه القاعدة، لكن الغربي مبدع فيها أكثر منا بكثير، مبدع في الشرط، وهو أنه ما تكرر تقرر، فيكرر المعلومة حتى تدخل إلى عقلك الباطن من دون أن تشعر، وتصيح أنت بشكل غير واع تعتقد بأن الإسلام مرتبط بالإرهاب، طبعاً ليس عند المنقذين وطلبة العلم، لكن عند الناس عموماً حتى المنقذين منهم بغير الثقافة الشرعية يدخل إلى أعماقه بأن الإسلام مرتبط بالإرهاب، لأنهم يكررون ذلك، مع أن الوقائع مختلفة لكن ما تكرر تقرر، فالقرآن الكريم عندما يكرر في القرآن سواء قصة في مواضع مختلفة أو آية مثل:

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ قِيَايَ آلَاءَ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ

(سورة الرحمن: الآية 13)

التكرار أسلوب قرآني، لكن ليس التكرار الممل، وليس التكرار الغير مبني على أسس، فلو تتبعنا قصة موسى في القرآن الكريم من مبدئه إلى منتهاه تجد أنها في كل سورة دُكرت بالقدر الذي يكفي لأداء هدف السورة، وبالطريقة التي تحقق مقصد السورة، القدر والطريقة، أي طريقة المعالجة، لأنه أنا يمكن أن أعالج قضية بالطريقة - أ - وبالطريقة - ب - وبالطريقة - ج - ، وكل الدروب تؤدي للطاحونة كما يقول المثل، بالنتيجة تحقق نفس المقصد، في القرآن الكريم ربنا عز وجل قد يذكر المقطع من قصة موسى في مكانين أو ثلاثة، نفس المقطع، نفس الحدث، لكن طريقة المعالجة هي التي تخدم هدف السورة.

إرادة البشر قاصرة و إذا أراد الله إنفاذ أمرٍ أنفذه :

هنا في سورة القصص قلنا من البداية إن الهدف من السورة الوحدة الموضوعية التي ترد في السورة، موضوعات السورة تريد أن تحقق هدفاً واحداً وهو بيان أن الله تعالى ينصر رُسُلَهُ، وبيان أن الله تعالى يحيط أوليائه وأصفياءه بالرعاية، لذلك السورة عندما بدأت قال:

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ وَنُرِيدُ أَنْ نَمُنَّ عَلَى الَّذِينَ اسْتُضِعُوا فِي الْأَرْضِ

(سورة القصص: الآية 5)



إرادة الله هي التي ستتحقق

السورة توضح لك أن هناك إرادة بشرية، إرادة الطغاة، وهناك إرادة إلهية، لكن إرادة الله هي التي ستتحقق، وإلآن كل ما سيذكر في قصة موسى عليه السلام في سورة القصص إنما ليحقق هذه الغاية، فالموضع الذي لا يحقق الغاية لن يذكر هنا، مثلاً: سيدنا موسى قومه عبدوا العجل، سيدنا موسى يقول :

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ إِنَّ اللَّهَ بِأَمْرِكُمْ أَنْ تَدْبَحُوا بَقَرَةً

(سورة البقرة: الآية 67)

في قصته مفردات مختلفة، لكن إذا كانت لا تحقق غاية السورة فلن تذكر هنا، فهنا في سورة القصص بدأت القصة بالحديث عن حلقة الولادة، لأنه بالولادة اتضح تماماً معنى كيف أن ربنا عز وجل رعى موسى وهو في التابوت، ورباه الذي أراد أن يقتله، فتبينت رعاية الله عز وجل، ثم في طريقه بعد أن خرج من المدينة خائفاً يترقب بعد أن قتل نفساً من بني إسرائيل وذهب، رعته يد العناية كيف أوصلته إلى مدين، وكيف زوجته من امرأة صالحه حبيبة، وكيف خدم عند رجل من أهل التقوى، وأهل الصلاح، وابتعد عن هذه الأجواء، وُرِيَّ في أجواء الطبيعة، واحتضنته يد الرعاية، ثم كيف سافته يد الرعاية ليعود في هذه الصحراء، ثم كيف أراد الله عز وجل له أن يتيه في الصحراء في سيناء ولا يدري أين هو، أيضاً لحكمة بالغة، ثم رأى ناراً:

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ
قَالَ لِأَهْلِهِ امْكُثُوا إِنِّي آنَسْتُ نَارًا لَعَلِّي آتِيكُمْ مِنْهَا بِخَبَرٍ أَوْ جَذْوَةٍ مِّنَ النَّارِ لَعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ

(سورة القصص: الآية 29)

تصطلون: تتدفقون، هذا الذي تحدثنا عنه سابقاً، فكل المراحل التي ذكرتها القصة توضح أن الله عز وجل إذا أراد إنفاذ أمرٍ أنفذه، وأنَّ إرادة البشر قاصرة، أنت تريد وأنا أريد والله يفعل ما يريد، هذا محور القصة.

الخوف والأمن يتنازعان الإنسان بكل لحظة من لحظات حياته :

الآن وصلنا:

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ
وَأَن أَلْقِي عَصَاكَ فَلَمَّا رَآهَا تَهْتَزُّ كَأَنَّهَا جَانٌّ وَلَّى مُدْبِرًا وَلَمْ يُعَقِّبْ يَا مُوسَى أَقْبِلْ وَلَا تَخَفْ إِنَّكَ مِنَ الْآمِنِينَ

(سورة القصص: الآية 31)



الخوف والأمن يتنازعان الإنسان بكل لحظة

(وَلَمْ يُعَقِّبْ) أي لم يلتفت إلى العقب إلى الخلف، شدة الخوف تجعلك لا تنظر إلى ما خلفك، بمعنى إذا إنسان رأى شيئاً مخيفاً جداً، ومضى لن يعود وينظر إلى خلفه، لأن أي نظر هو وقت مستقطع سيكون في غير صالحه في نظره، (وَلَمْ يُعَقِّبْ)، رنا عز وجل قال: (يَا مُوسَى أَقْبِلْ وَلَا تَخَفْ إِنَّكَ مِنَ الْآمِنِينَ) الخوف والأمن يتنازعان الإنسان بكل لحظة من لحظات حياته، سيدنا موسى قدوة لنا، خاف وأمن، بمعنى أنك طوال القصة تستطيع أن تنظر إلى خوفه وأمنه، عندما خرج من المدينة خرج خائفاً، وعندما وصل إلى الرجل الصالح الذي في بعض الروايات هو شعيب عليه السلام:

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ
قَالَ لَا تَخَفْ ۖ تَجَوَّتْ مِّنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ

(سورة القصص: الآية 25)

أَمِنَ عنده عشر سنوات، قضى أحسن الأجلين كما قلنا، الآن خرج، تاه في الصحراء، وقع في الخوف، ناداه ربه (إِنِّي أَنَا اللَّهُ) شعر بالأمن والطمأنينة، (أَلْقِي عَصَاكَ) خوف، ذهب قال له الله تعالى: (أَقْبِلْ وَلَا تَخَفْ)، فالإنسان يتنازعه شعور أن هذه سنة الحياة، سنة الحياة أن تكون خائفاً حيناً، وأمناً حيناً آخر، وقيس على ذلك، من سنة الحياة أن تكون حيناً مغتنياً، وحيناً مفتقر، من سنة الحياة أن تكون حيناً ضعيفاً وحيناً قوياً، من سنة الحياة أن تكون حيناً ذا سلطة وجاهة ومكانة، وحيناً ذا ضعف ليس لك سلطة وجاهة ومكانة، هذه سنة الحياة:

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ
وَتِلْكَ الْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ النَّاسِ

(سورة آل عمران: الآية 140)



الريح يكون بأن تنجح في الابتلاء

وكل إنسان فينا يتعرض لهذه وهذه، وبطولته أن يقف الموقف الأمل في الخوف وفي الأمن، في القوة وفي الضعف، في الغنى وفي الفقر، فليس الغني هو الذي ربح وليس الفقير هو الذي ربح، الذي نجح في الابتلاء هو الذي ربح، فلو أن غنياً حصل أموال الدنيا فطغى في الأرض وبغى ونسي المبتدى والمنتهى فقد خس، ولو أن فقيراً ما جاءه من الدنيا شيء فصبر وتعفف وعبد الله فيما أقامه فلقى الله وهو عنه راض فقد نجح، والعكس بالعكس لو أن فقيراً لم يأخذ شيئاً من الدنيا لكنه كان ساخطاً على الله فقد رسب، ولو أن غنياً حيزت له الدنيا بحذافيرها فبذل لله، وأعطى لله، ومنع لله، وأنفق في سبيل الله، فقد نجح، فالقضية ليست في أن تكون خائفاً أو آمناً، فقيراً أو غنياً، القضية أين أنت في الخوف؟ وأين أنت في الأمن؟ أين أنت في الغنى؟ وأين أنت في الفقر؟ كيف تقف؟ كيف تتعامل مع الحالة؟

نحن وصلنا إلى قوله تعالى:

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ
أَقِيلْ وَلَا تَخَفْ إِنَّكَ مِنَ الْآمِنِينَ

(سورة القصص: الآية 31)

ومن لا يأمن وهو في جوار الرحمن الرحيم؟!

نقل الله سيدنا موسى من حالة الخوف إلى حالة الأمن والاطمئنان :

الآن:

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ
اسْأَلْكَ يَدَكَ فِي جَيْبِكَ تَخْرُجُ بَيْضَاءَ مِنْ غَيْرِ سُوءٍ وَاصْمُمْ إِلَيْكَ جَنَاحَكَ مِنَ الرَّهْبِ ۖ فَذَانِكَ بُرْهَانَانِ مِنْ رَبِّكَ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا قَاسِيَيْنَ

(سورة القصص: الآية 32)

الجيب هو الفتحة في أعلى الصدر في اللغة العربية:

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ
وَلْيُصْرَبْنَ يَحْمُرُهُنَّ عَلَى جُيُوبِهِنَّ

(سورة النور: الآية 31)



لا يحل لمسلم أن يروغ أخاه

فالجوب هي الفتحة التي في أعلى الصدر، طبعاً في عهدنا اليوم الجيب أصبح في الأسفل على الأطراف، أو في الخلف، لكن هو في الأصل فتحة الصدر، فقال: (اسْكُلْ يَدَكَ فِي جَيْبِكَ) أي أدخل يدك في فتحة قميصك عند صدرك، اسلكها أي أدخلها، (تَخْرُجُ بَيْضَاءَ) يروى أن سيدنا موسى يده فيها سُمرة، سُمرة أهل مصر، أي هي سُمرة ليست بيضاء، لكن البياض أيضاً ليس بياضاً طبيعياً، ليس بياض الناس العاديين الذين هم من العرق الأبيض، لا، هي بيضاء وكأنها تشع، بياض يشع، (تَخْرُجُ بَيْضَاءَ مِنْ غَيْرِ سُوءٍ) أي من غير مرض، طمأنه ربنا عز وجل، وهو الآن في معجزة طمأنه ربنا عز وجل، بمعنى لا ينبغي أن نخوف أحداً، لأن الإنسان إذا سلك جيبه وأخرجها بيضاء يظن أنه مرض أو سوء أو يتساءل ما الذي حدث؟ صعبة جداً، فرينا عز وجل يطمئنه من غير سوء، ويعلمنا أنه لا ينبغي أن نروغ مسلماً، لا يصح ذلك:

{ لا يحل لمسلم أن يروغ أخاه }

(رواه أبو داود)



المعجزة هي خلاف العادة

(تَخْرُجُ بَيْضَاءَ مِنْ غَيْرِ سُوءٍ) الآن موسى عليه السلام في هذا الموقف، تخيل الموقف: صحراء باردة، ليلة شاتية، مكان مضيء في الصحراء ذهب إليه، سمع نداء عند الشجرة يقول: (إِنِّي أَنَا اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ) الموقف فيه رهبة، فيه خوف، مع كل الحب، ومع كل الأمن الذي هو بجوار الله، لكن الموقف رهيب، رهبة الموقف واضحة، الآن العصا تحولت إلى ثعبان، وتكلمنا في المرة الماضية أن المعجزة هي خلاف العادة، وليست خلاف العقل، لأن الثعبان هو مادة، الثعبان الأصلي الذي تراه أنت في الأرض ما هو في الأصل؟ مادة، لكن المادة الله بث فيها الروح، والدليل أنه إذا مات الثعبان يعود عصا، إذا نزع الله منها القوة المحركة ماذا تعود؟ مادة، لا يوجد فيها أي روح، فالعصا عندما تحولت هي عملياً خالفت العادة لأن العصا في عادة الناس لا تصبح أفعى أو ثعباناً مبيناً، لكنها لم تخالف العقل، لأن العقل ما دام اقتنع بالثعبان الذي يمشي على الأرض فيقتنع بالعصا أن تصبح ثعباناً بلحظة، هي واحدة عقلياً ليس هناك مشكلة.

الآن الإسراء والمعراج استحال عادة ولم يستحل عقلاً، اليوم إذا جاء شخص وقال: حدثت معي معجزة البارحة، قلنا له: خير، قال: في نفس اليوم سافرت من الأردن إلى اسطنبول، أين المعجزة في الموضوع؟ يقول لك: ذهبت وعدت، تقول له: أين المعجزة؟ ذهبت في الطائرة وحدث هناك مشكلة في المطار ولم تهبط فعدت الطائرة إلى عمان، أخذت حوالي ساعتين ذهب وساعتين إياب، ماذا حدث؟ فالיום ما يشبه الإسراء ليس معجزة، لكنه هو معجزة في عصر النبي صلى الله عليه وسلم لعدم توفر آلية الانتقال في عادة الناس، فذلك كل ما تراه عينك في الكون هو معجزة، أنت عندما تشاهد عصافيراً يطير في الهواء هذه معجزة أم ليست معجزة؟! كيف يطير؟ كيف يخلق؟ فالأشياء التي اعتدناها والفناها نطنها أنها ليست بمعجزة، هو في الحقيقة كل شيء معجز، معجز بمعنى أنه يعجز البشر عن الإتيان بمثله، الآن العصا تحولت إلى ثعبان انتهينا منها، البذ أصبحت بيضاء مشعة من غير سوء، ومن غير مرض، فموسى عليه السلام شعر بالرهبة، والرهبة أعلى مستويات الخوف، مباشرة تداركه الله عز وجل أول مرة قال له: (أَقِيلْ وَلَا تَخَفْ إِنَّكَ مِنَ الْآمِنِينَ)، المرة الثانية قال: (وَأَضْمُحْ إِلَيْكَ جَنَاحَكَ مِنَ الرَّهْبِ)، الرهب: أي بسبب الرهب، بسبب الخوف، والرهبة منتهى الخوف:

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ وَأَيُّ قَارِئِينَ

(سورة البقرة: الآية 40)



الرَّهْبَةُ تَجْمَعُ مَعَ الْخَوْفِ جَلَالًا

(وَأَيُّ قَارِئِينَ) شدة الخوف، والرَّهْبَةُ تجمع مع الخوف جلالاً، الرَّهْبَةُ ليست خوفاً فقط، أنت ممكن أن تقول: خفت من ثعبان، أو خفت من سيارة مسرعة، لكن أن تقول: رهبت، مثال: أنا أُرهب معلّمي، معلّمك لا يخوف ولكن هناك جلال يعطي في القلب خوفاً مع إجلال، هذا اسمه رهبة، فهنا موسى عليه السلام يقف في هذا الوادي بجلال الله، وبعظمة الله، ويتجلى الله عليه، هذه الطواهر الغريبة التي لم يألّفها أنتجت الرّهبة، فقال له: (وَأَصْمُمُ إِلَيْكَ جَنَاحَكَ مِنَ الرَّهْبِ) لماذا سمى اليد جناحاً؟ تشبيهاً بجناح الطائر، فكان الطائر عندما يرفرف بجناحيه، هذه الرفرفة توحى بالرّهبة والخوف لأنه ارتجاف، والصم يوحى بالاطمئنان، والأم إذا صمت ابنها إليها اطمأن، فدائماً الصم يوحى بالاطمئنان، والرجفان والخفقان يوحى بخفقان القلب، فعبر القرآن بهذا التعبير اللغوي الرائع، شبه يده بالجناح حتى ينقل لك صورة حالته وهو في هذا الموقف، هذا ما يسمى التصوير الفني في القرآن الكريم، أي الكلمات تُعبر عن المدلول وكأنك تراه، أنت تقرأ مثلاً:

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ وَسَيِّقَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِلَىٰ جَهَنَّمَ زُمَرًا ۖ حَتَّىٰ إِذَا جَاءُوهَا فَتَحَتْ أَبْوَابُهَا وَقَالَ لَهُمْ خَرَئْتُهَا

(سورة الزمر: الآية 71)

تشعر بأن الموقف ليس كلاماً، كأن الموقف هو شيء واقع تراه بعينك:

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَغْمَالُهُمْ كَسْرَابٍ يَافِقُهُ يُخْسِبُهُ الظُّمَانُ مَاءٌ حَتَّىٰ إِذَا جَاءَهُ لَمْ يَجِدْهُ سَبِيلاً وَوَجَدَ اللَّهَ عِنْدَهُ فَوَفَّاهُ حِسَابَهُ

(سورة النور: الآية 39)

انظر إلى التصوير، صحراء القيعية: هي الصحراء، أعمال الذين كفروا تشبه السراب، السراب أي إنسان واقف في الصحراء فعن بعد بسبب انعكاسات الشمس رأى كأن هناك ماءً (كَسْرَابٍ يَفِيقُهُ يُخْسِبُهُ الظُّمَانُ) لأنه لديه حاجة، الظمان ليس فقط السراب يحسبه قيعية بل إذا وضعت بجانبه طليقة يعتقد بأنها كأس ماء، لأن اتجاهه كله إلى الشرب (يُخْسِبُهُ الظُّمَانُ مَاءً حَتَّىٰ إِذَا جَاءَهُ) انظر جرس الكلام (حَتَّىٰ إِذَا جَاءَهُ لَمْ يَجِدْهُ سَبِيلاً وَوَجَدَ اللَّهَ عِنْدَهُ) هذا الحسم بعد الإمهال (فَوَفَّاهُ حِسَابَهُ) هذا اسمه التصوير الفني في القرآن، فهنا يصور القرآن حالة هذا الرجل، حالة سيدنا موسى عليه السلام، قال: (وَأَصْمُمُ إِلَيْكَ جَنَاحَكَ) فقط افعَل هذا، (مِنَ الرَّهْبِ) بسبب خوفك، فقط افعَل هكذا، ضم (مِنَ الرَّهْبِ) ترتاج، أراد الله عز وجل أن ينقله من حالة الخوف إلى حالة الاطمئنان بضم جناحه إليه.

برهانان من الله لسيدنا موسى على أنه رسوله :

الآن قال: (قَدْ آتَيْنَاكَ)، ذاك أي هذان، هذان هما إشارة إلى اليد التي أصبحت بيضاء، وقبلها العصا التي أصبحت ثعباناً (قَدْ آتَيْنَاكَ) هذان الأمران (بُرْهَانَانِ مِنْ رَبِّكَ) والبرهان هو الحجّة، فهذان الأمران حجّة لك من الله على أنك رسوله، وعلى أنك مؤيد بالوحي من عند الله، (قَدْ آتَيْنَاكَ بُرْهَانَانِ مِنْ رَبِّكَ) إلى فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ ملئه أي جماعته ومناصريه، الملاء، (إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا فَاسِقِينَ) الفسق.

مصطلحات في القرآن يجب معرفتها :

نحن يوجد عندنا مصطلحات في القرآن يجب أن نفهمها، هناك فسق وهناك كفر، هناك تكذيب وهناك ظلم مثلاً، هذه المصطلحات التي تطلق غالباً على الذين لا يقيمون شرع الله، أو البعيدين عن دين الله، ظلم، فسق، مُكذِّبين، كافرين، الكُفْرُ هو الغطاء، مثل cover باللغة الإنكليزية، الكُفْرُ هو الغطاء، هناك مدن في سوريا تسمى: كُفْر بطنا، كُفْر بابوس الخ.. لشدة ما فيها من نبات غطى الأرض فسميت كُفْرًا، كثير من القرى اسمها كُفْر كذا، أي الغطاء النباتي الكثيف غطى الأرض، فالكُفْر هو الغطاء:

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ
الَّذِينَ كَانَتْ أَعْيُنُهُمْ فِي غِطَاءٍ عَنْ ذِكْرِي

(سورة الكهف: الآية 101)



الكفر ليس مبرراً للحرب

فإذا قلنا: إنَّ فلاناً كافر، هل نحن نصفه؟ مبدئياً نحن كبشر ليس كإله هل نصفه أم ندّمه؟ مبدئياً وصف، فلان من الناس لا يؤمن بما يؤمن به، عينه في غطاء عمّا كشفه الله لي، بمعنى عمّا اتضح لي من القرآن والسنة، عينه في غطاء، فهو كافر بما يؤمن به، هذه الكلمة لا تدعو ولا تعني أنني أريد أن أحاربه، لأن الكفر ليس مبرراً للحرب، هل إذا إنسان كافر أي لا يؤمن بما يؤمن به؟ هل يجب أن أحاربه؟ هل يوجد بالشرع شيء كهذا؟ لا، لا يوجد شيء كهذا في الشرع.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ
وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يُقَاتِلُوكُمْ وَلَا تَعْتَدُوا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ

(سورة البقرة الآية 190)

أما الآيات:

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ
وَأَقْتُلُوهُمْ حَيْثُ تَقِفْتُمُوهُمْ وَأَخْرِجُوهُمْ مِّنْ حَيْثُ أَخْرَجُوكُمُ وَالْفِتْنَةُ أَشَدُّ مِنَ الْقَتْلِ وَلَا تُقَاتِلُوهُمْ عِنْدَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ حَتَّى يُقَاتِلُوكُمْ فِيهِ ۖ فَإِنْ قَاتَلُوكُمْ فَاقْتُلُوهُمْ ۚ كَذَلِكَ جَزَاءُ الْكَافِرِينَ

(سورة البقرة الآية 191)

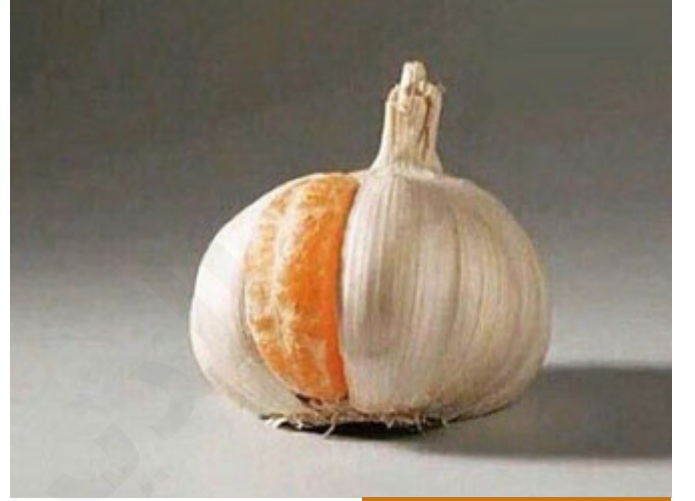
هذه الآيات بالمناسبة خاصة بحالات محددة بالمحاربين الذين كانوا في مكة، وغيرهم الذين نكلوا بالنبي وأصحابه، لها دراستها بسورة التوبة، ويلزمها دراسة مستفيضة، لكن كمبدأ عام عندما شرع القتال لم يشرع القتال لنقاتل الكافر حتى يدخل في دين الله:

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ
لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ قَدْ تَبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ

(سورة البقرة: الآية 256)

وإنما شرع لأهداف عليا وسامية، فالكفر هو الغطاء، هذا الأمر الأول، وعندما يصف الله تعالى قوماً بأنهم كافرون فهذا يعني بأنهم لم يعلموا الحقيقة، أو غطوا عن الحقيقة، علموها وغطوا عليها، هذا الكفر.

أقسى أنواع الظلم ظلم الإنسان لنفسه و عدم تعريفها بالله :



الظلم هو وضع الشيء في غير موضعه

الظلم: هو وضع الشيء في غير موضعه، إذا كان لديك شركة وجاءك مهندس، والمهندس درس خمس سنوات واختص سنتين، ثم أنت قلت له: لا يوجد لدي عمل لك كمهندس وسأوظفك لتقديم القهوة والشاي! العمل في تقديم القهوة والشاي ليس بعمل سيئ، والذين عملوا في هذا هو على العين والرأس، ولكن هذا المهندس أنت ظلمته، لأن هذا المهندس ليس موضعه هنا، ونفس الشيء إذا أتاك شخص لم يدرس شيئاً، وقال لك: هل لديك عمل؟ وقلت له: نعم، فالمهندس الذي كان يعمل هنا ترك العمل، وأنا أحتاج مهندساً هل تجلس محله! وهذا أيضاً ظلمته، أي ظلمت المكان وظلمت الشخص، فالظلم هو وضع الشيء في غير موضعه، فالإنسان الذي يظلم إنما يظلم لأن نفسه أرادها الله أن تصل إلى الجنة فأوردها موارد الهلاك فهو ظالم، هذا الظلم.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ
فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِنَفْسِهِ

(سورة فاطر: الآية 32)

الكفر تكذيب وإعراض والفسق خروج عن المنهج :



التكذيب هو إنكار الحقيقة

التكذيب: هو فرع من الكفر، لأن الكفر هو تكذيب وإعراض، فالتكذيب هو أن تنكر الحقيقة ولو كانت واضحة كضوء الشمس، سيأتي معنى المكذبين بعد قليل والظالمين، لذلك أردت أن أقولهم كلهم مع بعض حتى تجمع المادة، فالتكذيب هو أن تنكر الحقيقة من أجل مصالحك، أو خوفاً على نفسك، فتكذب بالحقيقة فيصبح الإنسان عندها مُكذِّباً، الآن الفسق الذي جاء في الآية هنا:

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ
إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا قَاسِيَيْنَ

(سورة الزخرف: الآية 54)

الفسق: هو الخروج، إذا قشرة التمرة خرجت عنها نغول: فسقت، أي خرجت، فأى خروج عن المنهج هو فسق، فالكفر عملياً هو حالة جود بالعقل، والفسق هو حالة إعراض بالسلوك، الكفر هو غطاء يغطي عين الإنسان فلا يبصر الحقيقة مهما كانت واضحة، ممكن أن يكون الغطاء بسبب مصالحه، لا يعني أن الحقيقة غير موجودة، بسبب مصالحه أصبح هناك غشاوة:

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ
وَعَلَىٰ أَبْصَارِهِمْ غِشَاوَةٌ

(سورة البقرة: الآية 7)



الفسق هو الخروج عن المنهج

من أين جاءت الغشاوة؟ هل الله وضع عليهم الغشاوة حتى يكفروا؟ لا، طبعاً وضعها عليهم لكن بما؟ بسبب أنهم لا يريدون رؤية الحقيقة، لأن شهواتهم ومصالحهم أقوى من إيمانهم، ومن خطاب عقلهم وفطرتهم، فالفسق هو الخروج عن المنهج، أي الفسق بالسلوك، هنا جاء (إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا قَاسِيَيْنَ) أي جاء بالنتيجة، بمعنى أن هذا الفسق والخروج عن المنهج ما الذي أدى إليه مع فرعون؟ طغيان واستعباد لبني إسرائيل، وتقتيل لأنبيائهم، واستحياء لنسائهم، وإثارة الفتن الطائفية، وجعل أهلها شيعاً، واستضعاف الناس:

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ
يَسْتَضِعُّ طَائِفَةٌ مِّنْهُمْ يُذَبِّحُونَ أَثْنَاءَهُمْ وَيَسْتَحْيِي نِسَاءَهُمْ إِنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ

(سورة القصص: الآية 4)

فجاء بكلمة الفسق لأن الفسق يدل على الواقع الذي كان يعيشه فرعون وملئه، وهو الخروج عن المنهج، وعندما يخرج الإنسان عن منهج الله سيسيء حتماً، سيسيء للجماد والنبات والحيوان والإنسان، إساءته بالغة:

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ
وَإِذَا تَوَلَّى سَعَىٰ فِي الْأَرْضِ لِيُفْسِدَ فِيهَا وَهُلِكَ الْحَرْتُ وَالنَّسْلُ

(سورة البقرة: الآية 205)

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ
إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا فَاسِقِينَ

(سورة الزخرف: الآية 54)

حمل سيدنا موسى المسؤولية و المضي بها بمساعدة هارون عليهما السلام :

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ
قَالَ رَبِّ إِنِّي قَتَلْتُ مِنْهُمْ نَفْسًا فَأَخَافُ أَنْ يَقْتُلُونِ

(سورة القصص: الآية 33)

هل كان موسى عليه السلام هنا ينتنّزل من المسؤولية؟ حاشاه، حاشا لنبي يقف بين يدي الله ويحمّله مسؤولية منه فيقول: يا رب أنا لا أستطيع أن أذهب لأنه صعب، لا، قال المفسرون: موسى عليه السلام كان خائفاً على طريق الدعوة، أي هو الآن حمل المسؤولية وسيمضي بها، والدليل مباشرةً بالآية التي بعدها:

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ
وَأَخِي هَارُونُ هُوَ أَفْضَحُ مِنِّي لِسَانًا فَأَرْسِلْهُ مَعِيَ رِدْءًا يُصَدِّقُنِي ۚ إِنِّي أَخَافُ أَنْ يُكَذِّبُونِ

(سورة القصص: الآية 34)

أي أنا ذاهب فاجعله معي، سنذهب، القضية منتهية، لكن أنا عندي مشكلة قد تحول دوني ودون أداء الأمانة التي وُكِّلْتُ بها، بمعنى أنت إذا جاء مدير الشركة وقال لك: سوف أوكلك بهذه المهمة، وأنت تحب مدير الشركة، وتحب عملك، وأنت قادر على القيام بالمهمة، لكن أنت نظرت وقلت له: عفواً هناك شيء أنا لا أستطيع أن أكمل بدونه، يقول لك: خير ما هو هذا الشيء؟ تقول: العمل يحتاج إلى حاسب متطور، والحاسب الموجود ضعيف لا أستطيع أن أنزل البرنامج عليه، فأنا لا أتنصل من المسؤولية، أنا أطلب الدعم فقط، حتى أؤدي المسؤولية التي أنيطت بي، فأنت عندما يطلب منك شيء لك أن تطلب ما يعينك على أدائه، هذا لا يعد تنصلاً من المسؤولية، هذا بالضبط الذي قاله سيدنا موسى:

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ
قَالَ رَبِّ إِنِّي قَتَلْتُ مِنْهُمْ نَفْسًا فَأَخَافُ أَنْ يَقْتُلُونِ

(سورة القصص: الآية 33)

(فأخاف) على الدعوة (أن يقتلوا) فلا تتم المهمة التي أوكلتني إياها فأكون قد قصرت في أداء الواجب، فماداً أصنع بهذه الجزئية، بهذا المعنى.



الاعتراف بالميزات الموجودة عند الغير

الأمر الآخر (وَأَجِي هَارُونُ هُوَ أَفْضَحُ مِنِّي لِسَانًا) أولاً: سيدنا موسى يعترف بالميزات الموجودة عند غيره، ما منعه أن يقول: ممكن فلان يساعدني مع أنه هو نبي الآن؟ أي ليس ملكاً الذي وكله بمهمة، ليس مدير الشركة الذي كلفه بالمهمة، خالق السماوات والأرض تكلم معه، وهذا لم يحدث لمخلوق، ربنا عز وجل يتكلم معه مباشرة، ويقول له: أحملك مهمة، فالآن إذا إنسان وكل بمهمة من أبسط المهمات من شخص مهم جداً، من الممكن ألا تستطيع أن تكلمه، قرأت عبارة أعجبتني: أن سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم كان في الغار فجاءه الوحي جبريل يقول له:

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ
أَقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ

(سورة العلق: الآية 1)

ثم نزل إلى الأرض فرأيناه يَخْصِفُ تَعْلَهُ، وَ يَكُونُ فِي مِهْنَةٍ أَهْلِيهِ، انظر حجم الذي حدث معه، وانظر إلى التواضع، فالتواضع يقاس بقدر حجمك، إذا إنسان قلنا: متواضع ما شاء الله، هو متواضع وإن شاء الله أجره كبير، ولكن قد لا يوجد لديه أي ميزة حتى لا يكون غير متواضع، أما إذا إنسان عنده مئة ميزة ثم كان متواضعاً هذا تواضعه أوضح وأجلى للعبان، مع العلم أن في الحالتين التواضع عند الله محمود، لأن هناك إنساناً يتكبر من غير أن يملك شيئاً:

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ
أَخَذَتْهُ الْعِزَّةُ بِالْإِثْمِ

(سورة البقرة: الآية 206)

فهنا رغم كل هذه المكانة التي حظي بها موسى عليه السلام قال: (وَأَجِي هَارُونُ هُوَ أَفْضَحُ مِنِّي لِسَانًا) اعترف بأن هناك من يمكن أن يساعده في مهمته، و بقي موسى موسى وبقي هارون هارون، لم يصبح هارون موسى ولم يصبح موسى هارون، عندما رجع الهدهد إلى سليمان قال:

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ
أَخْطَأْتُ بِمَا لَمْ تُحِطْ بِهِ وَجَنُتُكَ مِنْ سَيِّئَاتِي بِتَيِّبِينَ

(سورة النمل: الآية 22)

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ
قَالَ سَتَشِدُّ عَضْدَكَ بِأَخِيكَ

(سورة القصص: الآية 35)



الأخ هو الذي يناصرك ويؤيدك

العضد هو ساعد اليد، (سَتَشِدُّ عَضْدَكَ) كناية عن المؤازرة والمناصرة بأخيك، والأخ عموماً هو الذي يناصرك ويؤيدك، الابن لا أحد يشعر إلا بمراحل متقدمة بالحياة أن الابن يؤيده، أو يكون عوناً له، الابن موطنه أن الأب دائماً مهما كبر الابن يشعر الأب أن الابن أنا المسؤول عنه، والابن يشعر أن والده في مرتبة عليا من الجاهة والمكانة، أي ينظر إليه مكانة عالية، من المساوي؟ الأخ، لذلك في القرآن الكريم عندما قال تعالى:

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ
يَوْمَ يَفِرُّ الْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ * وَأُمُّهُ وَأَبِيهِ

(سورة عبس: الآية 34-35)

(يَفِرُّ) أول شيء بدأ بأقرب الناس إليك وهو الناصر والمعين، فلما تحدث عن الاعتزاز قال:

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ
قُلْ إِنْ كَانَ آبَاؤُكُمْ

(سورة التوبة: الآية 24)

بدأ بالأب، لأن الأب هو المصدر، تقول: أبي كان كذا، وكان كذا، (سَتَشِدُّ عَضْدَكَ بِأَخِيكَ وَتَجْعَلُ لَكُمَا سُلْطَانًا قَلَا يَصِلُونَ إِلَيْكُمَا) السلطان: هو الحماية، فلان له سلطان أي له سور يحميه من هجمات الناس، من كذا، فرينا عز وجل فوق المعجزتين أعطاه السلطان، السلطان هو أن الله عز وجل تكفل بحمايته حتى يؤدي دعوته، ومعلوم أن الأنبياء لا يقتلون إلا بعد أن يؤدوا مهمتهم:

{ عن عائشة رضي الله عنها قالت: كان النبي صلى الله عليه وسلم يُحرس حتى نزلت هذه الآية: {وَاللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ} (سورة المائدة:

67) قالت: فأخرج النبي صلى الله عليه وسلم رأسه من القبة وقال: "يا أيها الناس انصرفوا فقد عصمني الله عز وجل" {
(رواه الترمذي)

لأنه إذا قُتل الرسول قبل أن يؤدي مهمته، طبعاً أنبياء بني إسرائيل قتلوا منهم:

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ
وَيَقْتُلُونَ النَّبِيِّنَ بِغَيْرِ حَقٍّ

(سورة آل عمران: الآية 21)

ولكن إذا قُتل ومعه رسالة لم يؤدها فهذا حاشاه تعالى يدل على ضعف المُرسِل، أي أنت إذا بعثت رسالاً برسالة، ونال منه الناس قبل أن يؤدي رسالته، هذا يعني أنك لست قادراً على حماية سفيرك، مشكلة، فذلك الأنبياء معصومون من أن يقتلوا إلا إذا أدوا رسالتهم، فهنا قال: (وَيَجْعَلُ لَكُمْ سُلْطَانًا) أي ليس من المعقول أن يدخل عليه وينهض فرعون ويقتله، انتهت، لم يبق أداء للرسالة نهائياً، (وَيَجْعَلُ لَكُمْ سُلْطَانًا) وهذا دليل على محور السورة الذي تكلمنا عليه وهو أن يد الرعاية الإلهية تحيط بموسى، وأن الله ينصر أوليائه.

حفظ الله لموسى و هارون لأنهما أصحاب رسالة ينبغي أن تؤدي :

الآن جعل له سلطاناً (وَيَجْعَلُ لَكُمْ سُلْطَانًا) قال: (فَلَا يَصْلُونَ إِلَيْكُمْ) من يصلون؟ فرعون وملئه، (إِلَيْكُمْ) إلى موسى وهارون، أي لن يستطيع أحد أن يصل إليكما بسوء لأنكما أصحاب رسالة ينبغي أن تؤدي، فهذا الحفظ من الله تعالى، كيف؟

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ
وَمَا يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلَّا هُوَ

(سورة المدثر: الآية 31)

كيف ربنا عز وجل يحمي إنساناً؟ هذا شأنه جلّ جلاله، ثم قال: (أَتَيْتُمَا) موسى وهارون (وَمَنْ أَتَيْتُمَا) أي الذين سيؤمنون معكما وسيكونون معكما، (يَأْتِيَانِي أَنْتُمَا وَمَنْ أَتَيْتُمَا الْعَالِيُونَ) (يَأْتِيَانِي) تابعة لما بعدها أي (وَيَجْعَلُ لَكُمْ سُلْطَانًا) فلا يصلون إليكما (التقديم والتأخير بالكلام) (أَتَيْتُمَا) (الْعَالِيُونَ) (وَمَنْ أَتَيْتُمَا) أي بالحجج والبيانات التي معكم، بسبب الحجج، هذه الباء السببية، أي (يَأْتِيَانِي) تنتصرون، بحججنا تنتصرون، بالبيانات تنتصرون، (يَأْتِيَانِي أَنْتُمَا وَمَنْ أَتَيْتُمَا الْعَالِيُونَ).



الآية هي العلامة الواضحة

لماذا قدم (يَأْتِيَانِي)؟ تقديم أهمية، ليلفت النظر إلى السبب الذي سيؤدي إلى الغلبة، فهل ستكون الغلبة بقوة ذاتية من موسى وهارون؟ لا، هل ستكون بسبب ضعف فرعون وملئه؟ لا، هل ستكون بسبب معجزة سيهينها الله عز وجل فجأة؟ هذا جزء من الآيات، فهي شيء خارق للعادة، العادة والمألوف بأن فرعون هو الغالب، لأنه هو صاحب القوة، والسلطان، والمال الأكثر، ومعه قوة أكبر، وهو المسيطر، هو بأمر واحد يقتل موسى، لكن (يَأْتِيَانِي أَنْتُمَا وَمَنْ أَتَيْتُمَا الْعَالِيُونَ) فالغلبة ستكون لكما (يَأْتِيَانِي)، والآية هي المعجزة أو البرهان، نقول: فلان آية في الجمال، علامة دالة على الجمال، الآية هي العلامة، لكن هي العلامة الواضحة، البينة، الظاهرة، وسمي الجزء من السورة آية لأنها تدل على إعجاز القرآن، فهي علامة على الإعجاز، فالآيات آيات ربنا عز وجل.

في ختام الآية (يَأْتِيَانِي أَنْتُمَا وَمَنْ أَتَيْتُمَا الْعَالِيُونَ) هذه الآيات التي تظهر وتبين الحجة والغلبة والقوة على فرعون، بسبب ما ربنا عز وجل جعل لهما من هذا السلطان (يَأْتِيَانِي أَنْتُمَا وَمَنْ أَتَيْتُمَا الْعَالِيُونَ).

رعاية الله لرسله و تأييدهم :

الآن هذه الحلقة من القصة طويت، هي بطور سيناء، بسور أخرى ممكن أن ترجع لها وتلقاها معروضة بطريقة أخرى، سورة طه أظن، ختمت الحلقة بهذا الشكل بهدف وهو تبيان رعاية الله كما قلنا، وتأييده لرسله، أغلقت الحلقة وصرنا بمصر:

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ
فَلَمَّا جَاءَهُمْ مُوسَى بِآيَاتِنَا بَيِّنَاتٍ قَالُوا مَا هَذَا إِلَّا سِحْرٌ مُقْتَرَى وَمَا سَمِعْنَا بِهَذَا فِي آبَائِنَا الْأَوَّلِينَ

(سورة القصص: الآية 36)

القصة هنا تعرض على شكل حلقات وبينها فجوات، الفجوة هي المكان الذي ربنا عز وجل يريد أن يُعْمله هنا لعدم الحاجة إلى ذكره، وليطلق لخيالك أن تتأمل بعد ذلك ما الذي حصل، أنبت تقول لنفسك: رجع موسى عليه السلام إلى أهله وقد حمل الرسالة، وسار بهم، وتابع طريقه، ووصل إلى فرعون، الآن كيف دخل؟ هذا لا يهمنا، صرنا عند موسى (فَلَمَّا جَاءَهُمْ مُوسَى بِآيَاتِنَا) أخذ الآيات وجاء إليهم بها، فجوة بسيطة تترك لك الخيال، وتعفيك من ذكر أشياء لا علاقة لها بالعبارة المرادة من القصة.

والحمد لله رب العالمين